قراءة في ديوان

" ميـــلاد أمـــة "

للدكتور محمد صيام

استطاع الشعر الفلسطيني الحديث أن يكون مدرسة قائمة بذاتها على خريطة الشعر العربي، أصبح لها مقلدوها فيما عرف بـ «شعر المقاومة».

انطلقت هذه المدرسة ودعاتها من رحم الحركات اليسارية التي راج فكرها في منتصف هذا القرن ولم تستلهم تراث الأمة بل جعلت من (بابلو نيرودا) وناظم حكمت وغيرها من شعراء اليسار نماذج تحتذى. وعبر وسائل الإعلام التي سيطروا عليها روجوا لبضاعتهم فخفتت الأصوات الإسلامية ولم يسمع بها أحد - رغم وجودها- مما حدا بالدكتور مأمون فريز جرار أن يكتب بحثاً تحت عنوان «الاتجاه الفلسطيني في الشعر الحديث». ليثبت أن الصوت الإسلامي كان ولا يزال صاحب حضور على خريطة الشعر الفلسطيني الحديث .

هذه مقدمة سريعة بين يدي الحديث عن ديوان الشاعر الفلسطيني الدكتور محمد محمود صيام «ميلاد أمة» الذي صدر عن دار الفرقان في عمان، وهذا هو الديوان الثاني للشاعر بعد ديوانه الأول «دعائم الحق».

قدم للديوان الشاعر يوسف العظم بمقدمة كنا نود أن يضع فيها يده على عثرات الديوان ليستفيد منها الشاعر

* نشر المقال في صحيفة (المسلمون) - عدد ٢١٥- ١٧/٣/١٩٨٩.

بشكل خاص والشعراء الإسلاميون بشكل عام .

في زمن غزت فيه القيم الغربية عقول المسلمين وقلوبهم وسقطت فيه قيم الأبوة والأخوة في مستنقع المصالح المادية تتجلى قيمة الاهداء في هذا الديوان حيث أهداه الشاعر إلى والده رداً للجميل كما يقول :

فالله - يا أبتاه- أسأل بالرضا لك والقبول

وإليك أهدي هذه الكلمات رداً للجمـــيل

قبل أن ألقي بقاربي المتداعي في بحر هذا الديوان أود أن أقتبس تعريف ابن خلدون للشعر . يقول ابن خلدون في مقدمته : «الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي مستقل كل جزء منها في الوزن والروي». ويضيف : وقولنا المبني على الاستعارة والأوصاف فصل عما يخلو من هذه فإنه في الغالب ليس بشعر » .

هذا تعريف ابن خلدون وليس تعريف واحد من النقاد المحدثين ، فالاستعارات والصور الشعرية أركان أساسية لا يستقيم عمود الشعر بدونها . فهل تحققت هذه الشروط في هذا الديوان ؟ إن الشاعر قد نسي في كثير من الأحيان أنه

يكتب شعراً فأجدب الديوان من الاستعارات والصور الموحية التي تأخذ لب القارئ وتثير انفعالاته.

هذه قضية . .القضية الأخرى هي أن القصيدة إن كانت ستتحول إلى خطبة فلربما كانت الخطبة أوقع أثراً في نفوس البعض . ولعل المقالة تحظى بعدد من القراء أكبر من القصيدة . أقول هذا وأنا أرى الشاعر في كثير من أجزاء الديوان يتحول إلى واعظ يعتلي منبراً لا شاعراً يكتب قصيدة تثير في قارئها أحاسيس الجمال والتأمل ومن ذلك قوله :

فاتقوا الله أيها الناس واسعوا

لتنالوا رضاه يوم الجزاء

وأنيبوا إليه واستغفروه

بكل اشراقة وبكل مساء

ولتتوبوا من كل زيف وزيغ

ولتدينوا له بكل ولاء

ويقول في قصيدة أخرى :

يا أيها الفتيات يا أمل المسيرة في الغداة

فلتقتحمن بدينكن معاقل المستهترات

ولتتخذن مثالكن الفضليات السابقات

هذه النبرة الوعظية الخطابية والمليئة بالأفكار المشرقة والمواعظ القيمة ليس هذا مكانها، وليس هذا أسلوبها ولا أقول هذا لأني من دعاة فصل الشكل عن المضمون أو الفن للفن ، كلا فالشاعر يطرح فلسفته ورؤيته للحياة من خلال شعره ولكن ليس بهذا الأسلوب النثري الخطابي. فلو أن الأمر كان كذلك، لعُدت منظومات الفقهاء الطويلة من عيون الشعر.

ونحن هنا لا ننكر شاعرية الشاعر ولا قدرته على استخدام الاستعارة والصورة الشعرية ولكنه-جزاه الله خيراً- وانطلاقاً من حرصه على بث فكره الإسلامي نجده يغرق في لغة النثر العادي، وحتى غير الأدبي أحياناً، وترتفع النبرة الخطابيةعنده ناسياً أن القارئ إما أن يكون ممن يؤمنون بالحل الإسلامي فيكون هذا الكلام بالنسبة له تقليداً مكرراً ، وإما أن يكون غير ذلك فلا تقنعه هذه التعميمات .

لنترك الناحية الفنية قليلاً ولنبحث عن مضمونات الشعر عند شاعرنا .

الالتزام بالهم الإسلامي علامة بارزة في جبين الديوان

من ألفه إلى يائه وها هي ذي فلسطين تحتل مساحتها الطبيعية على خريطة الديوان كيف لا والشاعر ابن للنكبة عاشها بكل كيانه وأحاسيسه وكان وما زال يعرف ببصيرة المؤمن أسباب هذه النكبة . ومن ذلك قوله :

يا قوم ما أنتم خصوماً وجه بعض تصفعون

إن أنتم يا قوم إلا (أخوة) و (مواطنون)

فلمَ التناحر والتشاحن عند من يتربصون

بكمو . . بدينكمو بأرضكمو . .فهل أنتم عمون

وها هو ذا يعلن رأيه واضحاً في السبيل الذي سيعيد الكرامة والوطن ويرسم فجر الأمة من جديد .

فلتنفروا صفاً فنحن نعيش أياماً عصيبة

ولترجعوا لله يرفع عنكمو تلك المصيبة

ولتعلموا أن الربا الخضراء في الأرض السليبة

ورمال سيناء مع الجولان والقدس الحبيبة

يحتجن من دمنا الضريبة عن رضا نفس وطيبة

فلتنفروا حتى نؤدي كلنا تلك الضريبة

والشاعر كان معلماً ثم مشرفاً في وزارة التربية الكويتية وقد أثّر هذا على أسلوبه ناهيك عن أن قضية التعليم قد أخذت لها حيزاً واضحاً في الديوان من خلال قصائد . . (الصامتون يتكلمون) . . (أنا وابنتي) . . (إلى الشباب) . . يقول في قصيدة إلى الشباب :

أنا - ما علمت- معلم

قضيت أيامي العذاب

قلمي وقرطاسي يرودان

البراعم للصواب

ولقد وجدت الشعر ذا

أثر عجيب في الشباب

فنظمته كالسلسبيل لهم

وكالتبر المذاب

في الدين أرفع راية

الدين الحنيف إلى السحاب

قصائد المناسبات تكاد تكون سمة مشتركة بين أكثر

الشعراء الإسلاميين ولكن الملاحظ أن الشاعر في هذا الديوان يركز على وصف الحادثة على غرار كتب السير والتاريخ وبلغة عادية مما ينحدر بمستوى القصيدة إلى عادية السرد التاريخي ومن ذلك قوله في قصيدة «غزوة مؤتة»:

وبسرعة أخذ ابن حارثة يجهز للقتال

يحصي العتاد من الركائب والأسنة والنصال

ويوزع الفرسان في تلك الكتائب والرجال

ويصبح فيهم أسرعوا فالروم عاثوا في الشمال

وتمكنوا من أهله كتمكن الداء العضال

الصور الشعرية هي من أهم مقومات القصيدة الحديثة بما تحمله من معان متداخله تستحث القارئ على فهمها وتخلق قاموساً لغوياً جديداً وترسم من تشابك اللغة العادية عالماً شعرياً جميلاً .

فالقصيدة التي تخلو من الصورة الشعرية لا وزن لها عند النقاد وهي بذلك تصبح ضرباً من النظم الغارق في اللغة النثرية الخالية من حرارة الشعر وتوهجه والذي يجيده الكثير من الدارسين.

ونجد في الديوان مقاطع متفرقة تتميز بلغة شعرية جيدة فيها شيء من الاستعارات والصور ومن ذلك قوله في قصيدة «إلى الامهات» :

فإذا خطون تمايلت كل القلوب لخطوهنه

وإذا خطرن تغنت الدنيا على خطراتهنه

واستأذنت شمس الضحى لتغيب عند ظهورهنه

ويغيب زهر الرابيات إذا تبدى زهرهنه

القضية اللافتة للنظر هي قدم تاريخ القصائد وتباعد فتراتها ولست أدري لماذا لم ينشر الشاعر هذا القصائد في ديوانه الأول (دعائم الحق) الذي صدر عام ١٩٨١ أي قبل كتابة الكثير من قصائد الديوان الحالي .

نختتم هذه القراءة لديوان الدكتور صيام بكلام جميل للأستاذ محمد قطب لعل فيه فائدة لحملة لواء الأدب الإسلامي .

● **يقول الاستاذ محمد قطب :**

«إن القاعدة العامة هي أنه كلما اقترب النص من التعبير المباشر عن الفكرة أو المفهوم كان أبعد عن الفن ، وكلما

استطاع الفنان أن يعطينا الفكرة أو المفهوم من خلال وشائج حية ومن خلال المشاعر والانفعالات والحركة النفسية التي تكسو الفكرة وتغلفها كما يكسو اللحم والعروق والاعصاب العظام الجافة كان أقرب إلى الفن وأبلغ في التأثير».

«مع ذلك يبدو أنه لا مناص من قدر من التعبير المباشر عن الأفكار والعقائد في بعض الأحيان ولكن ذلك كله يبقى ضمن حدود معينة بحيث لا يخرج بالفن والشعر عن صبغته الأصلية » .